"دموع الملح" كتاب يروي قصص المهاجرين واللاجئين المأساوية

□ ترجمة/ أحمد الزبيدي

سلطت الكثير من الكتب الضوء على التفاصيل الدقيقة لحياة اللاجئين القادمين من شتى بقاع العالم، لتضفي بذلك لمحة إنسانية عليهم. وكان هدفها إيصال رسالة مفادها أن هؤلاء اللاجئين ليسوا أرقاماً وأعداداً يتم تداولها في نشرات الأخبار، بل إن كل واحد منهم له قصته المميزة، وسبباً مختلفاً دفعه إلى ترك بلده واختيار الغربة. ومن الكتب من يشير الى أن اللاجئ ليس بالضرورة أن يكون مشرداً فقيراً، كما يحلو لبعض وسائل الإعلام تصويره! حيث بينهم فنانون ومثقفون وأكاديميون وحرفيون ماهرون وصناعيون وتجار وغيرهم الكثيرون اضطرتهم ظروف مختلفة إلى مغادرة أوطانهم، وأحيانا بدون عائلاتهم، في رحلة مجهولة لا يعلمون عنها شيئا.

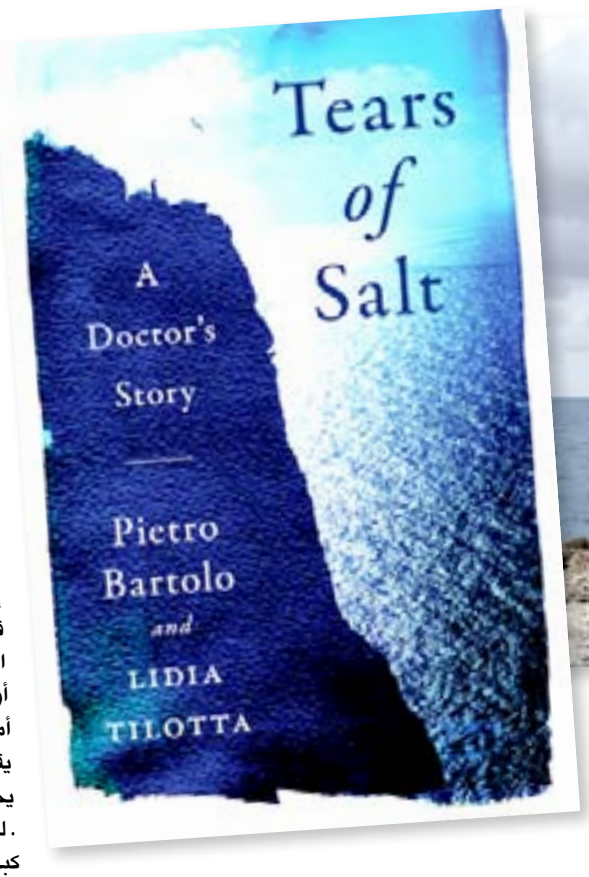

على مدى ٢٥ عاماً، كان الطبيب الايطالي بيترو بارتولو يستقبل موجات المهاجرين التي تصل على شواطئ لامبيدوسا، وهي جزيرة إيطالية صغيرة تقع في البحر الأبيض المتوسط.

ويبدأ عمله معهم بفحص العين، حتى يقرر مَنْ منهم يحتاج إلى عناية طبية وكيف يمكن أن يساعد في تخفيف معاناتهم. ورغم الظروف الصعبة التي عاشوها ، إلا أنه كان يبذل قصارى جهده ليلقي عليهم النكات التي تساعدهم على نسيان أعباءهم ولو للحظة من الزمن .

اكتشف المصور ستيفانو شيراتو بارتولو قصة هذا الطبيب عندما كان يصور الفيلم الوثائقي نار في البحر". الذي رشح لنيل جائزة الأوسكار "وقام باخراجه المخرج الإيطالي جيانفرانكو روسي وقد فاز الفيلم بجائزة الدب الذهبي في مهرجان برلين السينمائي.و تناول أزمة اللاجئين في أوروبا حيث يصور حوداث مريعة شهدتها جزيرة لامبيدوزا الإيطالية ".

كان هذا الطبيب متحمس لعمله. وهو يشغل منصب مدير الخدمات الصحية في الجزيرة، لكنه أمضى معظم وقته وجهوده في مساعدة المهاجرين.

ويقول الطبيب بارتولو "حتى قبل ان تخوض في الأمور السياسية والتفكير في كون مجيء هؤلاء المهاجرين إلى إيطاليا صحيحا أم لا ، يجب أن ترى بأم عينيك الظروف اللاإنسانية التي يصلون بها ".

"فهناك الموتى، والمحروقين من الرجال و النساء، وهناك الأطفال الذين يموتون وترمى جثثهم في البحر، وأول شيء يجب عليك القيام به هو مساعدتهم على عدم الموت

بيترو بارتولو شهد واختبر حالات لم يشهدها أحد من قبل .

وباعتباره طبيبا يعمل في جزيرة لامبيدوسا الواقعة في أقصى جنوبي إيطاليا، فقد كان على خط المواجهة لأزمة اللاجئين منذ أكثر من ٢٠ عاما. وقد رأى قوارب من اللاجئين القادمين من أفريقيا، وكانت تصل أحيانا بشكل يومي، مكتظة بالأشخاص الذين يتضورون جوعاً، ويعانون من الجفاف، والرعب. ويشير إلى أن هؤلاء هم المحظوظون - فهم لا يزالون على قيد الحياة.

وقد رأى أطفالاً يائسين انفصلوا عن آبائهم وأمهاتهم لأن الوالدين كانوا يعهدون بأبنائهم إلى أي شخص يستطيع المساعدة. وشاهد الشباب الذين تركوا أوطانهم وهم مليئون بالأمل، فقط من أجل الوصول إلى إيطاليا وكيف كانوا خائفين جداً الى الحد إنهم غير قادرين على الكلام. وقد رأى ، نقطة الهبوط الرئيسة في الجزيرة، وهي مكدسة بالجثث.

في الكتاب الذي صدر مؤخراً ويحتوي مذكرات الطبيب بارتولو وصدر بعنوان دموع الملح (كتبه بالاشتراك مع ليديا تيلوتا)، هناك قصص لا يمكن تحمل قراءتها ، وفي الواقع، هناك الكثير في هذا الكتاب الذي يصعب تحمله. ومع ذلك فهو عمل لا ينبغي تفويته.

لا يخفي بارتولو شعوره بعدم الرضا عن العالم الذي نعيشه فهو يقول ("السجون الليبية التي يودع فيها اللاجئون هي معسكرات الاعتقال الجديدة"،: "و الظروف التي يسافر فيها المهاجرون عبر الصحراء والبحر لا تختلف عن ظروف قطارات الموت التي كانت تنقل ضحايا مجازر النازية ").، ويتميز سرده بانه غني بمشاعر الرحمة والتعاطف والإنسانية.

كما انه لا يخفي غضبه من الظروف التي خلقت المعاناة التي يواجهها، لكنه أيضاً يبدي اعجابه بشجاعة وتصميم العديد من المهاجرين، و كرم العديد من مواطنيه.

نلتقي في الكتاب بالمهاجر الصومالي الشاب حسن الذي رفض التخلي عن شقيقه المعوق، وحمله على ظهره عبر الصحراء إلى ليبيا. وهناك أنوار، النيجيري البالغ من العمر ١٠ سنوات الذي غادر المنزل بمفرده لإيجاد وسيلة لكسب المال لدعم والدته واخوته الأصغر سناً منه.

وهناك أيضا امرأة إيطالية أنقذت قط أليف محبوب من طفل لاجئ سوداني ثم طارت مع الحيوان إلى ألمانيا (على نفقتها الخاصة) لتعيده شخصياً إلى صاحبته المتلهفة.

وهناك أطفال المدارس الإيطالية في بيزا الذين تبرعوا بجوائزهم لشراء ألعاب لأطفال اللاجئين.

وهناك أيضا الطفلة النيجيرية اليتيمة وكان اسمها إحسان – ذات الابتسامة الجميلة جدا الى الحد الذي جعل بارتولو يقترح على زوجته ان توافق على تبنيها يسرد المؤلف في فصول الكتاب المتعاقبة قصة حياته. حيث ولد في عائلة صياد طيب في لامبيدوزا ، وترعرع وهو يستنشق الهواء المالح ويختبر أسلوب الحياة الريفية في جزيرة كانت أقرب إلى تونس منها الى إيطاليا. وبعد ان تلقى تعليمه تمكن من أقناع زوجته، ريتا - وهي طبيبة ايضا - للانتقال إلى لامبيدوسا.

في ذلك الوقت، كان الاتفاق على العيش في لامبيدوزا يمثل بالفعل خياراً صعباً لريتا. كانت الجزيرة معزولة ولا حياة فيها . ولكن هذا كان قبل أن يتحول وصول المهاجرين الى أزمة. في البداية، كما يكتب بارتولو، كانت هناك حفنة قليلة منهم فقط. "في ذلك الوقت كانت الظاهرة جديدة وكانت الاعداد قليلة ويضيف "لكن كل شيء بدأ يتغير : فقد وصل المزيد من اللاجئين ، مع المزيد من أسباب الفرار من أوطانهم".

وأصبح عمل بارتولو صعباً بطرق لم يكن يتخيلها أبداً، وفي بعض الأحيان كان يبدو وكأنه على وشك تدميره شخصياً ، لكنه تلقى الدعم، كما يقول، من زملائه ، فكان كثير منهم يقدم المساعدة للقادمين.

في عام ٢٠١٤، يلتقي بارتولو مع المخرج الإيطالي جيانفرانكو روزي، الذي جاء إلى لامبيدوزا ليصور فيلما وثائقيا عن اللاجئين. هذا الفيلم يترشح في عام ٢٠١٦ لنيل جائزة الأوسكار "". وقد جعله الفيلم يشعر بفرح شديد ويكتب عن ذلك قائلا "لقد كنت أرغب في ذلك بشدة "، ، "فقد كان من شأنه أن يبعث رسالة صريحة لا لبس فيها من شأنها أن تحطم كل الأكاذيب التي دارت حول هذه القضية، وتوقظ الضمير العام، وتفتح أعين الناس".

إلا أن الحزن الشديد أصابه، بعد فترة وجيزة من إنتاج الفيلم، بسبب التشديد على الحدود في جميع أنحاء أوروبا، وأغلاق المزيد من الأبواب أمام اللاجئين.

يقول بارتولو في كتابه :أن ما رآه لم يجعله يفقد الثقة في رحمة الله أبداً . لكنه يقول إنه أصبح محبطاً بشكل كبير بسبب "البشر الجشعون الذين لا يرحمون والذين يعتمدون على المال والسلطة". وهو لا يضع في هذه الخانة ، اولئك المتاجرين بالبشر فقط ، بل يضع أيضا السياسيين والمواطنين العاديين الذين شاهدوا معاناة المهاجرين ولم يقدموا لهم يد المساعدة.

ومع ذلك، فإن كتاب بارتولو بمثابة تذكير قوي بأنواع مختلفة جداً من الاستجابة الإنسانية.لمأساة اللاجئين إن دعوته للتعاطف والرحمة التي يطلقها بالنيابة عن آلاف الغرباء الذين يتدفقون باستمرار نحو شواطئ بلده تجد صداها يوماً بعد يوم . ويمكن للمرء أن يأمل فقط أن صداها سوف يكبر ويزداد تأثيره

■ عن: كريستيان ساينس مونيتور

أليف شفق : نحن بحاجة إلى جرعة من الشك وجرعة من الإيمان

تركيا هي بلد يعاني من فقدان الذاكرة الجماعي

□ ترجمة: المدى

تصف الروائية التركي أليف شفق في روايتها " بنات حواء الثلاث " شخصيات نسائية ثلاث هي الخاطئة، والمؤمنة والحائرة . وهي تقول عن هذه الرواية : "السؤال الذي أردت معرفة جوابه هو: هل يمكن لنساء مختلفات جداً أن يعشن مثل الأخوات؟".وتضيف قائلة "عندما تعيش النساء منقسمات في ظل ثقافة أبوية، فان الشيء الوحيد الذي يستفيد من هذا الوضع هو النظام الأبوي". تدور أحداث الرواية في وقتنا الحاضر، عندما تحضر بيري (٣٥ عاماً) حفل عشاء في اسطنبول. وتسترجع ذكرياتها التي عاشتها في أكسفورد طوال الليل. تتحدث هذه الرواية عن مواضيع معاصرة مثل الحركة النسوية، والاخلاص الديني والشك العلماني والاضطرابات السياسية. ولدت الكاتبة في فرنسا، حيث كان والدها يدرس في ذلك الوقت، وعاشت في العديد من الأماكن، بما في ذلك إسبانيا والولايات المتحدة. وعلى مدى السنوات الثماني الماضية، تقسّم وقتها ما بين لندن واسطنبول. وتناقش في هذه المقابلة أهمية ان تكون أصوات النساء مسموعة

× متى جاءتك فكرة كتابة هذه الرواية لأول مرة ؟

– كنت أفكر في موضوع هذه الرواية قبل أن أبدأ بكتابتها . أشياء كثيرة تعاملت معها بشكل مباشر كانت مصدر إلهام لي. إن العالم الذي نعيش فيه عالم متحول جداً. وعندما تعود المجتمعات إلى الوراء وتتعثر في العزلة والاستبداد، فإن المرأة ستخسر الكثير. وفي جميع أنحاء العالم الإسلامي، تخوض عدد من الفتيات الشابات في مناقشات جادة ومهمة ، لأن الانزلاق إلى الوراء يحدث بشكل سريع جداً في العديد من الأماكن، بما في ذلك تركيا، التي أتيت منها. المشكلة هي أننا لا نسمع أصواتهن كثيراً في الأماكن العامة. ما أردت القيام به هو عرض تلك النقاشات التي تجريها النساء في مجالسهن الخاصة، كالنقاشات التي تدور حول قضايا الإيمان، والحياة الجنسية. كنت أرغب في أن تصل أصواتهن إلى الفضاء العام وكتابة رواية تكون شخصياتها المحورية من النساء.

× ما هو الشيء الأكثر إثارة للدهشة الذي تعلمته أثناء كتابتك هذه الرواية؟

– في البداية كنت أفكر في هذه الفتيات الثلاث في أكسفورد كشخصيات منفصلة تماماً. ولكني بدأت أتصورهن على أنهن يمثلن ثلاث مراحل مختلفة يمكن للشخص نفسه أن يمر بها في حياته؛ حيث يشعر بمزيد من الإيمان ، أو بمزيد من الشك. وعندما أصبحن شخصيات حية ، بدأت أدرك انه بالرغم من خلافاتهن الواضحة، فان باستطاعتهن أن يكن أكثر مرونة، وتساءلت عما إذا كان من الممكن أن يتقربن الى بعضهن البعض.

قضيت أيضاً الكثير من الوقت في أكسفورد أثناء كتابة هذه الرواية . تركيا هي بلد يعاني من فقدان الذاكرة الجماعي، ولكن في أماكن مثل أكسفورد هناك تراكم واستمرارية في المعرفة. فمثلاً توجد قائمة بالمانحين الذين دعموا المكتبة هناك منذ القرن الثالث عشر. ليس هناك شعور مماثل بالاستمرارية كهذا في تركيا. وكانت فكرة مقارنة الذاكرة مع فقدان الذاكرة فكرة مثيرة للاهتمام بالنسبة لي اثناء كتابتي الرواية.

× بأي طريقة اصبحت هذه الرواية تختلف عن تلك التي شرعت في كتابتها؟

– هناك إسلوبان مختلفان في كتابة الرواية. الأول هو ما أدعوه بالاسلوب الأبوي التقليدي، عندما يجعل الروائي من نفسه قيّما على النص ويعرف ماذا ستفعل كل شخصية لم أشعر أبداً انني قريبة من هذا الاسلوب. أنا أحب الاسلوب الثاني، الذي تعتمد أكثر قليلا على الحدس.فأنت لا تعرف بالضبط الى أين تسير القصة ، أو ماذا ستفعل الشخصيات ربما إلا بعد أن تكتب ١٥ صفحة من الرواية .

جميع الفتيات الثلاث في هذه الرواية يحضرن ندوة عن الله تتحدث فيها شخصية تدعى أستاذ أزور. أزور لديه عقل غريب، وهو يريد تخطي الحدود المعرفية السائدة. عندما بدأت الكتابة كان يمثل بالنسبة لي لغزاً كبيراً. لم أكن أعرف الى أين سأذهب معه. يسألني الناس دائماً أي واحدة من الفتيات الثلاث يمثلني أكثر، ولكني أعتقد أحياناً انني أحب أن إختفي ضمن شخصياتي الذكورية.

× من هو الشخص المبدع (من غير الكتاب) الذي أثر عليك وعلى عملك؟

– كنت في مدريد فتاة شابة ومراهقة. لن أنسى أبداً حينما ذهبت إلى متحف برادو للمرة الأولى ورأيت لوحات غويا. كان لها تأثير كبير عليّ. كانت هناك مراحل في حياة غويا، ولكني في ذلك الوقت لم أكن أعرف التسلسل الزمني لتلك الأعمال. العديد منها كانت زاهية بالالوان وتنبض بالحياة وتعكس حياة الشارع في القرن الثامن عشر. والبعض الآخر كان مليئا بالحزن والعنف والحرب؛ والبعض الآخر مليء بالجنون. ما فعلته في ذهني المراهق هو انني كنت أنظر إلى كل تلك اللوحات سوية – بكل تعقيداتها ، وحدود عقل الرسام ورؤيته.

بعد سنوات، عندما اكتشفت أعمال الراقصة الالمانية بينا باوش، أحسست بشعور مماثل حول تعقيد عقل الفنانين. بالنسبة لي كان هذا مهم جدا. خصوصاً في بلد مثل تركيا، فبدأت أذهب إلى الحديث في المدارس، وأراقب دائما الفتيات الصغيرات – في عمر سبعة، وثمانية،و تسعة أعوام –كان من المدهش ما كنت أراه من حجم الجرأة والخيال لديهن . فكنت اذا سألتهن ، "من تريد أن تكون شاعرة أو كاتبة في يوم ما؟"فان الكثير من الأيدي ترتفع. الفتيات مثقفات مثل الأولاد، وربما أكثر منهم. ولكن بحلول سن البلوغ، يتغير كل شيء. ليست هناك واحدة تريد أن تكون كاتبة. ولا أن تهتم بالفن. وإذا كن كذلك ، فلا يمكنهن الافصاح عن ذلك. المجتمع يقتل هذا الإبداع، وتتعلم النساء أن يصبحن خجولات ومقيدات ، ويشعرن بقلق بالغ إزاء ما يمكن ان يقوله الآخرون عنهن ،عندما نظرت إلى أشخاص مثل غويا و بينا باوش، كانت الرسالة التي حصلت عليها: فقط إفعل ما أنت تتحمس اليه . لا تفكر في ما سيقوله الآخرون، أو كيف سيستقبلون عملك ..

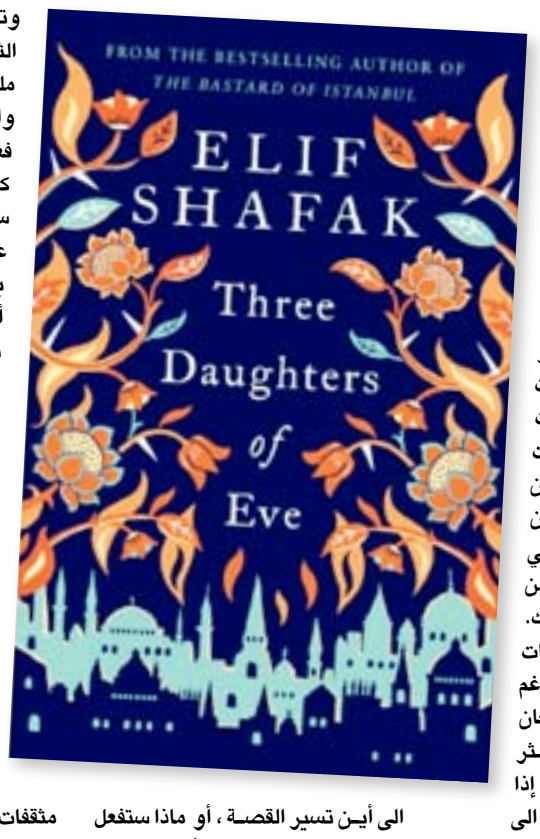

× اذا أردت إقناع شخص ما بقراءة "الرواية" في ٥٠ كلمة أو أقل فماذا تقولين؟

–نحن نعيش في عصر شديد الازدواجية ،نحتاج الى معرفة الفروق الدقيقة بين الإيمان والشك. نحن بحاجة إلى جرعة من الشك وجرعة من الإيمان، ليتحدى بعضهما البعض. وتحاول هذه الرواية الحديث عن الإيمان والشك بطريقة مختلفة تماما وتبتعد عن الازدواجية .

■ عن: نيويورك تايمز

إيلينا فيرانتي تكتب عن تجربتها الأولى في الحب

تعد إيلينا فيرانتي (ولدت عام ١٩٤٣) واحدة من أعظم روائيات زماننا ،وإيلينا فيرّانتي هو اسم مستعار لكاتبة إيطاليّة مجهولة رفضت الإفصاح عن هويّتها ومن أشهر رواياتها رواية «صديقتي المذهلة»وهي الرواية الأولى من أربع روايات جُمعت بعنوان «رباعيّة نابّولي» وصُنِّفت من أجمل ما أنتجــه الأدب الإيطاليّ المعاصر.

□ ترجمة: المدى

تشكل الخمسينيات والستينيات، وصولاً إلى السبعينيات، محطات أساسية في روايات فيرانتي. إنها قصص تتناول حياة النابوليين المعدمة، في ظل الصراعات السياسية والاجتماعية التي سادت المدينة، وبهذا المعنى، هي قصص ليست جديدة، تناولها كتاب إيطاليون معروفون، كإدواردو دي فيليبو، ولويجي بيراندييللو وأخيراً روبرتو سافيانو. تكمن إضافة فيرانتي، في الزمن النابولي الذي تتناوله، وفي شجاعة مفرطة ضدّ الفساد والفاشية

وقد قررت مؤخراً ان تقوم بكتابة مقالة أسبوعية في صحيفة الغارديان البريطانية تتحدث فيها عن تجاربها الحياتية الأولى ،و كان موضوع مقالتها الأولى (الحب الأول):

كنت قد خططت منذ فترة ، أن اكتب عن تجاربي الأولى في الحياة وقد أخترت أن أكتب عن أشياء معينة من قبيل: المرة الأولى التي رأيت فيها البحر، و المرة الأولى التي صعدت فيها الى الطائرة، والمرة الأولى التي وقعت فيها في الحب، و المرة الأولى التي مارست فيها الحب. وقد كانت الكتابة عن هذه الاشياء تجربة شاقة وغير مجدية.

ولكن ماذا لو كان الأمر خلاف ذلك ؟ نحن ننظر دائماً الى أول تجربة عشناها بتساهل مفرط. فهي تكون بدون خبرة سابقة، ولا يصيبها النجاح أبداً ، لذلك فنحن نتذكرها بشيء من التعاطف، مصحوباً بالندم . وسرعان ما يجرفها تيار الاحداث ، وتتحول إلى عادة يومية ، ومع ذلك فنحن ننظر إليها كونها تمتلك قوة لا يمكن تكرارها.

وبسبب هذا التناقض المتأصل فيها على وجه التحديد ، بدأت مشروعي ووجدتني استغرق فيه عميقاً عندما حاولت أن أصف بشكل صادق أول تجربة حب لي. بذلت جهدا للبحث في ذاكرتي للحصول على التفاصيل، لكني لم أتذكر سوى القليل منها . كان شاباً طويل القامة للغاية ، رقيق جدا، وكان يبدو وسيماً بالنسبة لي. كان عمره ١٧ عاماً، أما أنا فكان عمري ١٥ عاماً . كنا نلتقي يومياً عند الساعة السادسة مساءً. نذهب إلى زقاق مهجور خلف محطة الحافلات. يتحدث معي بضع كلمات ، ثم يقبلني ، ولكن ليس كثيرا. ويداعبني، ولكن ليس كثيرا. ما كان مهتماً به في المقام الأول هو أنني يجب أن أدلعه وأهتم به ، في احدى المساءات – هل كان مساءً؟ – قبلته بذات الطريقة التي كنت أحب أن يقبلني بها. فعلت ذلك بتلك اللهفة الشديدة والجريئة ، الى حد انني قررت بعد ذلك عدم رؤيته مرة أخرى. ولكني بالفعل لا أعرف ما إذا كان هذا حدث حقاً أو في سياق قصة حب قصيرة أخرى تلتها . بالتأكيد كنت أحب ذلك الصبي إلى حد ، إن رؤيته، كانت تجعلني أفقد أي احساس بالعالم من حولي، وتجعلني أشعر بأني على وشك الإغماء، ليس بسبب الضعف ولكن بسبب فائض الطاقة الذي كنت أشعر به.

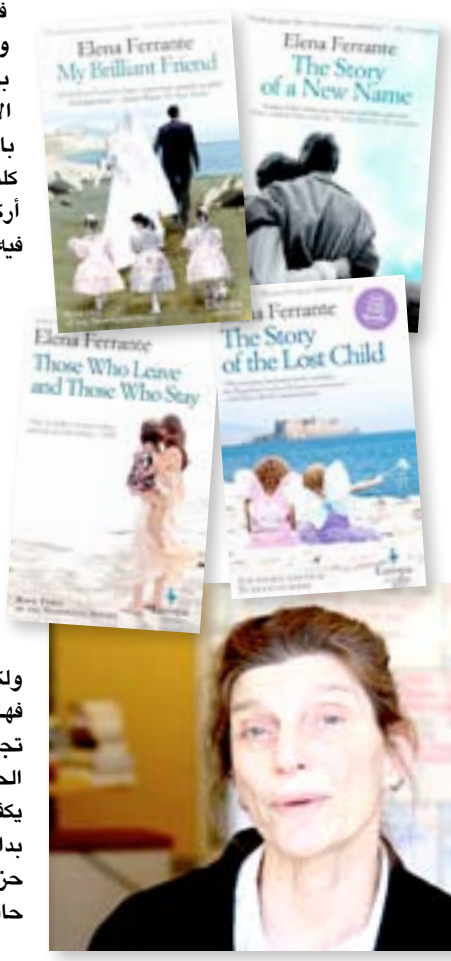

ونتيجة لذلك، اكتشفت، ما أتذكره بوضوح من حبي الأول هو حالة الارتباك التي كانت تصيبني. أو بالأحرى، ما كنت أقوم به فقد كنت كلما أحاول تحسينه أكثر ، كنت أركز بشكل أكبر على أوجه القصور فيه : تلك الذاكرة الغامضة، والشكوك العاطفية، والقلق، وعدم الرضا. في الواقع لم يكن هناك شيء يعجبني فقد كنت أتوقع وأريد أكثر من ذلك، وفوجئت إنه من ناحية أخرى، بعد أن كان يطلب مني الكثير ، بات يراني زائدة عن الحاجة وتركني وهرب لأنه كان لديه أشياء أخرى عليه القيام بها.

حسنا، قلت لنفسي، سوف أكتب عن الشكل الذي نريد جميعاً أن يكون عليه الحب الأول. ولكن، حالما حاولت، تمردت الكتابة، فهي تميل إلى سد الثغرات، وتصور تجربة الحب الاول ذلك الشكل النمطي الحزين لسن المراهقة. لهذا قلت، هذا يكفي من أول مرة. ما نكون عليه في بداية تجربة الحب الاول ما يشبه حزمة غامضة من الألوان تقربنا من حافة ما أصبحنا عليه فيما بعد

■ عن: الغارديان